فكاهات

رواية

عواقب الطيش[1]

كان في باريز شابٌّ في الخامسة والعشرين من العمر يدعى ادمون وسيم الوجه دمث الاخلاق بادي النشاط ينبئ منظرهُ عن البسالة وعلوّ النفس وتوحي عيناهُ السوداوان شدة الذكآء وحدّة التصوُّر ورقة الشعور وهو ابن قائدٍ رفيع المكانة في الجيش الفرنسوي توفي عن ثروةٍ صالحة تاركاً ولدهُ ادمون لعناية والدتهِ فربي في ظل حنوّها حتى ترعرع ودخل المدارس فتلقى العلوم والمعارف ناهجاً طريق الاعتماد على النفس في كل اعمالهِ فنال شهادة المدرسة الحربية وتعين ملازماً في الجيش . وكان محبوباً عند رفاقهِ الضباط للين عريكتهِ وحسن خلالهِ غير انهُ كان كثير الميل الى العزلة والانفراد يتلذذ بمناجاة آمالهِ ومناغاة امانيّهِ واميالهِ حتى انهُ لم يكن يخرج للتنزه على ظهر جوادهِ الا وحدهُ بغير رفيق

واتفق انهُ بينما كان مارًّا في احد الايام على الجسر وقع نظرهُ على غادةٍ بهية الطلعة مهيبة الذات كانت مارّةً من هناك والتقت العين بالعين فكان لذلك الالتقآء تأثير رعشةٍ واضطراب في فؤادهِ وانطبعت في ذهنهِ

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم موسى افندي صيدح

صورة ذلك المحيَّا باحرفٍ من نور وارتسمت سورة الوجد حولها باحرفٍ من نار وكأَن الشاعر العربي تخيَّل مثل تلك الحالة منذ قرونٍ مضت فقال

عيون المَهَى بين الرصافة والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيث ادري ولا ادري

وبات ادمون بعد ذلك عرضةً لتلاعب الاماني والتصورات تتصرف فيهِ كما تشآء لان الحب اذا دخل قلب امرئٍ تقلصت فيهِ سلطة العقل واضحى الحكم للعواطف فهي ذات التصرف المطلق والارادة النافذة

وكانت الغادة التي رآها ادمون في طريقهِ في السادسة والعشرين من العمر رشيقة القوام صبيحة الوجه جامعةً لكل فتانٍ من المحاسن واسمها مادلين وهي ابنة رجلٍ من اصحاب الثروة الواسعة نشأت على الفضائل والآداب الحسنة وتثقفت بالعلوم والفنون فاصبحت آيةً في كمالها كما هي فتنةٌ في جمالها وكان ابوها قد زوَّجها بالمسيو ريمون رئيس محكمة الجنايات الكبرى في باريز مع بلوغهِ الخمسين من العمر رغبةً منهُ في ان يقرن الغنى بالجاه . وريمون هذا من اعاظم رجال الحكومة وذوي الشهرة بينهم بسعة الاطلاع والتضلع من المعارف وعلى الخصوص القانونية منها غير انهُ لم يكن يخلو من جفوةٍ في طباعهِ وقسوةٍ في فطرتهِ وقد رأى مادلين فافتتن بها وسعى في الحصول عليها فلم يُرَدَّ لهُ سؤلٌ فتمَّ سعدهُ كما يشتهي ويريد

وقضيا بعد الزواج مدةً بتمام الأُلفة والهنآء ثم اخذت العلائق تبرد بينهما شيئاً فشيئاً لان جذوة الحب في فؤاد ريمون اخذت في الخمود يوماً بعد يوم جرياً على السنة الطبيعية لانهُ حبٌّ نشأ في غير اوانهِ فكان اشبه

بنار القنَّب تشتعل حيناً بشدّة ويرتفع لهيبها ثم لا تلبث ان تخمد وتتلاشى ولا سيما وانهُ لم يكن لذلك الحب رابطٌ قويّ من العواطف يضمن بقآءهُ لاستحالة المبادلة مع اختلاف السن وتباين الاميال بين العروسين . وعلى اثر هذا الفتور عاد ريمون الى انهماكهِ في الاشغال العقلية وانصبابهِ على المباحث القانونية وانصرفت افكار مادلين الى سياسة منزلها ومشارفة احوال الخدم كما هو شأن المرأة العاقلة . وكانت تخرج في غالب الايام للنزهة عند المسآء فاتفق ان التقى بها ادمون ذلك الملتقى ولما رأتهُ وقع من قلبها موقعاً جليلاً ثم افترقا وقد تزودت من الشوق الى معرفتهِ فوق ما تزوَّد من تأثير لحظاتها

***

جآء اليوم الثاني وحلّ ميعاد النزهة فكان على الجسر ادمون ومادلين وقد التقيا في نفس الوقت الذي تصادفا فيهِ بالامس واحسَّ كلٌّ منهما عند تصادم اللحظين بشيءٍ من السرور ولبثا على هذه الحال اياماً وهما يتقابلان كل يوم ولا يكلم احدهما الآخر . وخطر لادمون في احد الايام ان يتوصل الى معرفة شيءٍ من امر مادلين فتتبعها من ورآءِ ورآءِ وما زال حتى رآها دخلت قصراً منيفاً يدل على العظمة ورفعة المقام فعرف وقتئذٍ من هي وداخلهُ على اثر ذلك شيءٌ من اليأس وخيبة الآمال لانهُ رأى نفسهُ دون مقامها غير انهُ لم يتأخر مع ذلك عن السعي الى الموعد المعين في كل يوم مدفوعاً بقوَّةٍ لا تقاوَم . واتفق في تلك الاثنآء ان الجرائد نشرت خبراً مفادهُ ان مادام ريمون ترأست جمعيةً غايتها جمع المبرّات

لمساعدة مدرسة اليتامى واثنت عليها وحثّت اهل الخير على مؤازرتها في ذلك العمل الخيري فكان الكبرآء واصحاب الثروة يتسابقون الى بيت المسيو ريمون ليقدموا للسيدة مادلين مساعداتهم الماليـة لما شرعت فيهِ . وعندئذٍ خطر لأدمون الاّ يضيع هذه الفرصة فتوجه الى منزل المسيو ريمون وعرض على السيدة مادلين رغبتهُ في المساعدة وكان خافق القلب ثائر الجأش كانهُ بحضرة ملاكٍ عظيم او ملكٍ كريم وعرفتهُ مادلين عند ما رأتهُ فرحبت بهِ وقد حاولت ان تخفي ما شعرت بهِ من الاضطراب عند مقابلتهِ مع انها قبل هنيهةٍ كانت تقابل الكبرآء والعظمآء غير مبالية . ثم قدم اليهـا ادمون صكاً بقيمة ثلاثة آلاف فرنك وسألها التنازل لقبولهِ فشكرتهُ مادلين على عواطفهِ الشريفة ومقاصدهِ الخيرية ثم قدمتهُ الى المسيو ريمون فبشّ اليهِ وسُرَّ بمعرفتهِ وجلسا يتحدثان . ومنذ ذاك الحين عُدّ ادمون من اصدقآء البيت فصـار يتردد ويوالي الزيارات وحين لا يجد المسيو ريمون في البيت كان يجلس الى مادلين فيتجاذبان اطراف الحديث . وكان ادمون يرى من رقة مليكتهِ وغزارة آدابها وعلوّ نفسها ما يستعبدهُ رقاً ويزيدهُ في كل يوم شوقاً جديداً ولم يكن يجسر ان يفاتحها بحديث وجدٍ او شكوى غرام لان شخصهـا كان لديهِ مثال الهيبة والوقار فـكان يكتم جواهُ راضياً بما أُوتي من نعمة التقرب اليها والحصول على بعض الانعطاف منها مكتفياً بلذة مشاهدتها ونعيم مجالستها وتكاثرت اجتماعاتهما بعد ذلك وكانت كلها احاديث رقيقة تشفّ عن صدق ميلٍ متبادَل تغتبط بهِ النفوس فان هذه اللذة احسن لذةٍ واثبتها هنآء

وكان من جملة من يترددون على بيت المسيو ريمون رجلٌ واسع الجاه رفيع المقام بعيد الشهرة اسمهُ الجنرال فريدريك وهو ذو منصبٍ سامٍ في وزارة الحربية ولم يكن يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر . وكان مفتوناً بمادلين كل الافتتان وكان يكثر من التردد على ريمون رغبةً في مشاهدة مادلين والتلذذ بمحادثتها مترقباً الفرص ليبوح لها بغرامهِ ويكشف عما يطويهِ فؤادهُ من الوجد والهيام الى ان أُتيح لهُ يوماً مشاهدتها وحدها فاخذ يشكو لها ما يلاقي من هول غرامها مستعطفاً اياها متذللاً متعبداً . اما هي فاستنكرت شكواهُ وقابلتها بالصد والملام وقد حسبتها تجرؤاً على فضيلة صيانتها وطهارة عفافها واخذت منذ ذاك الحين تجتنب مقابلتهُ ما استطاعت مما زادهُ على نارهِ ناراً ولم يبقِ لهُ على مضاجع الراحة قراراً

واحس فريدريك بما كان من ازدياد تقرب ادمون من مادلين والاكثار من تردده عليها وجلوسهِ اليها ثم خلوّهِ بها عند غياب المسيو ريمون من البيت فداخلتهُ الغيرة وهاج بهِ الحنق للانتقام من مادلين فارسل الى المسيو ريمون كتاباً مجهول التوقيع يخبرهُ فيهِ بانحراف امرأتهِ عن الجادّة وتعلقها بحبال هوى الفتى ادمون ويذكر لهُ عن اجتماعها بهِ في خلوات عديدة الى غير ذلك مما يبعث الانفة ويثير الغضب والغيرة . اما ريمون فلمزيد ثقتهِ بفضيلة امرأتهِ وفرط صيانتها لم يكترث في اول الامر بما قرأ وحملهُ على دناءة بعض الاعداء غير انهُ لما تكرر عليهِ ورود الكتب في هذا المعنى وكل كتابٍ تشتدّ لهجتهُ عما قبلهُ وفيهِ تعيين الاوقات التي كان يجلس فيها ادمون الى مادلين اثر ذلك اخيراً في ذهن ريمون وادخل الريبة على

قلبهِ فعزم ان يتحقق الامر بنفسهِ واخذ منذ ذالك الحين يشدد المراقبة ويتتبع امرأتهُ في كل حركاتها

***

في احد الايام اذ كان ادمون جالساً الى مادلين في البيت على انفراد يتحدثان على جاري عادتهما وهو يرسل اليها نظر الافتتان متأملاً في عينيها النجلاوين وثغرها البسام ورشاقة قدها الفتان هاج فيهِ كامن الوجد والهيام حتى تغلب على واجبات الوقار والرزانة فاخذ يشكو اليها ما يلاقي من لواعج الحب وتباريح الوجد مستعطفاً اياها لترثي لهُ وتشفيهُ من عنآء ما يشقيهِ . اما مادلين فكانت تصغي اليهِ وهي مقطبة الوجه ثائرة قوى النفس ثم قالت لهُ اني كنت احسبك يا ادمون صديقاً مخلصاً في اميالك مستقيماً في اطوارك لا يخدعك وهمٌ ولا يأخذك طيش وقد رغبت في معرفتك بعد ان تحققت علوّ نفسك وغزارة ادبك ولم اجهد في توثيق عرى الالفة بيننا الا على امل ان يكون ارتباطنا ارتباطاً ودياً تتنعم بهِ النفوس وتتلذذ القلوب اما وقد رأيتك تسيء الظن بفضيلة نفسي فتطلب مني ان اجاريك على ميلك وفي هذا نكثٌ لعهود الصيانة واجحافٌ بحقوق الزوجية فقد صرت اشك في صحة ودادك واوقن بانحراف غايتك . فنزل هذا الكلام على ادمون كالصاعقة لما رأى من غيظ مادلين منهُ وايقن بابتعاد قلبها عنهُ فاضطرب واكتأب واخذ منهُ اليأس كل مأخذ فلم يرَ الا ان ينكب على قدميها ليستعطفها فنفرت منهُ فهجم وتناول يدها وادناها من فمهِ ليقبلها وعندئذٍ فُتح الباب فجأةً وترآى شخص ريمون وقد وجه اليهما انظاراً احدّ من

السهام وكان منظرهُ في ذلك الوقت مثال الرهبة والذُعر ثم لم يلبث ان ترك الغرفة وانصرف . اما مادلين فلبثت كالصنم لا تدري ماذا تقول او كيف تبرئ نفسها وقد خانها الجلد فاتكأت على المقعد ثم وجهت الى ادمون نظرة يأسٍ وقالت يا سوء ما جنيت عليّ يا ادمون . ثم اصطكت اسنانها وداهمتها نوبةٌ عصبية تلاها غشيٌ فطار قلب ادمون هلعاً وصار يطوف في الغرفة كمن مسهُ الجنون ثم انكب على مادلين واخذ يعالجها بما وصلت اليهِ يدهُ حتى افاقت من غشيتها فالتفتت اليهِ وقالت لهُ اذهب يا ادمون واتركني اقاسي ما اقاسيهِ وحدي فاني بمقاساتي اكفر عن ذنبك . فودعها ادمون وخرج وهو يتهادى كالسكران او كالخارج من موقعة قتال عنيف وعند وصولهِ الى البيت جلس يفكر فيما مرّ بهِ من الاهوال وعظم ما جنى على ذلك المَلَك الكريم وبات بليلة الملسوع حتى بدا الصباح . واول ما خطر لهُ ان يذهب لمقابلة ريمون ويستغفرهُ عما اتاهُ ويكشف لهُ عن عفاف زوجتهِ وعلوّ فضيلتها وينفي من ذهنهِ سوء الظن بها فتوجه اليهِ في المحكمة حيث يستقبل زائريه . اما ريمون فلما رآه ادمون رحّب بهِ وقابلهُ ببشاشتهِ المعتادة ثم أفاض معهُ في الحديث كأن لم يكن شيءٌ مما كان فدهش ادمون لهذه المعاملة ولم يدرِ كيف يأوّلها ثم تطرق في الحديث الى ذكر حادث البارح وأخذ يصف لهُ طهارة السيدة مادلين وفرط صيانتها وشدة عفافها مثبتاً ذلك باغلظ الايمان ثم خرّ على ركبتيهِ امام ريمون وقال اني انا وحدي الجاني فان شئت ان تغفر لي عددت ذلك منك رحمةً والا فهذه حياتي بين يديك فافعل بها ما تشآء . فاستوقفهُ ريمون وقال لهُ اني لا

اريد بحياتك سوءًا يا ادمون وانما اطلب منك امراً فان أتممتهُ عفوت عنك ونسيت لك كل زلة . قال مُرْ بما بدا لك فاني اتممهُ بغير تأخر . قال اريد ان تسافر بعد يومين من باريز ولا تعود اليها في مدة سنة . فامتُقع لون ادمون واكتأب اي اكتئاب ولكنهُ لم يرَ بدًّا من القيام بما وعد بهِ فقال طوعاً لامرك يا سيدي ثم نهض فودعهُ وانصرف . وفي اليوم الثاني جهز لوازم السفر وكتب الى مادلين يخبرها بما تمّ ويذكر لها فرط لوعتهِ ومزيد حزنهِ مستغفراً منها مسترحماً ان تعفو عن زلتهِ وتبقى على حبهِ وفي صباح اليوم التالي كان خارج باريز مع الفرقة المسافرة الى الحدود

اما ريمون فلم يتغير على مادلين بعد تلك الحادثة وكان يعاملها بما عوّدها من البشاشة والملاطفة فايقنت بصدق اعتقادهِ بفضيلتها وانهُ لم يسئ بها ظنًّا

***

ومضى على ادمون شهران في الاغتراب تقلب فيهما على مضاجع من الوجد احرّ من الجمر حتى لم يعد يطيق صبراً واتفق ان رأى احدى الليالي حلماً مزعجاً تمثلت لهُ فيهِ حبيبتهُ بحالة الخطر وهي تطلب منهُ الاقبال لتخليصها فزاد ذلك في وساوسهِ واضطرابهِ وافقدهُ التجلد فلم يكن منهُ الا ان غادر الجيش يوماً بغير علم احد قاصداً باريز وعند وصولهِ توجه توًّا الى بيت المسيو ريمون فشاهد بعض الخدام في الباب فسأل احدهم عن عن مولاتهِ فقال لهُ انها منذ يومين تتمخض لتلد وهي تذوق اصناف العذاب والآلام والقابلة ملازمةٌ لها . فقال أوَ لم تستدعوا لها احداً من

الاطبآء . قال لم يأمرنا المسيو ريمون باستدعآء احد سوى المسيو دولار طبيب البيت وهذا لم يأتِ الى الآن . قال وهل المسيو ريمون هنا . قال لا يا سيدي فانهُ خرج في هذا الصباح ولم يعد . فأخذ الغيظ والاسف من ادمون كل مأخذ وطار قلبهُ جزعاً على حبيبتهِ اذ رأى انها على شفا الخطر وليس من يعتني بأمرها وقد اهملها اقرب الناس اليها فصار يتخطر في الشارع ذهاباً واياباً وهو غائب عن الوجود لا يدري ماذا يفعل . واخيراً فكر ان بقآءهُ في الشارع مما يؤاخَذ عليهِ فانصرف قاصداً بيت القابلة لينتظرها ويستفهمها عن سلامة مادلين وبقي هناك الى المسآء وهو على مثل شوك القتاد حتى عادت فبادرها بالسؤال عن صحة مادلين بدعوى انهُ من انسبآئها فقالت لهُ اني تركتها بحالة الخطر الشديد لانها بعد ان وضعت وتحققت نجاتها انتابتها اعراضٌ جديدة شديدة الوطأة . فقال ادمون وقد جمد الدم في عروقهِ ومِمَّ تشكو . قالت من آلامٍ تمزق احشآءها وحرارة في دمها تحرق جسدها وقد اعطيناها بعض المسكنات فلم تنجع فيها . فقال ولمَ لم تستدعوا لها بعض مهَرة الاطبآء . قالت لان المسيو ريمون لم يشأ مع انني اعلمتهُ بالخطر المحيق بزوجتهِ وطلبت منهُ استدعآء طبيب حاذق فلم يصغِ اليَّ واكتفى بطبيب البيت وهذا لم يحضر الا في هذا المسآء وقد تركتهُ هناك ومادلين المسكينة تصيح وتستغيث من الالم وقد ايقنت بفراق الحياة فهي تودعها بعباراتٍ يذوب لها الجلمود

فلم تتم القابلة كلامها حتى خارت قوى ادمون وكاد يغشى عليهِ فتجلد وودع القابلة وخرج هائماً على وجههِ وهو فاقد الرشد لا يدري اين يسير

فافضى بهِ الطواف الى قرب بيت ريمون فوقف فرأى الابواب مغلقة والنوافذ مظلمة وقد استولى على المكان سكوتٌ عميق يبعث في قلب الكئيب كل حزنٍ ورهبة . فلبث يطوف وهو حائرٌ شارد اللب حتى انقضى الليل وعند الصباح عاد الى بيت ريمون فرأى الخدام قلقين مضطربين فاقترب من احدهم وسألهُ عن حالة مولاتهِ فاجاب انها توفيت البارحة ليلاً وبعد قليل موعد تشييع الجنازة . فذُعر ادمون واستولى عليه الذهول فلبث في مكانهِ بلا حراكٍ ولم ينتبه الا والجنازة خارجة من البيت فمشى مع جمهور المشيعين من عظمآء وكبرآء حتى اودعوها التراب وقفلوا راجعين

اما هو فجلس على حجرٍ هناكَ واخذ يفكر في هول ذلك الخطب الفاجع ثم تردد في خاطرهِ كلام القابلة عن مفاجأة الالم لمادلين بعد نجاتها وتركِ زوجها لها في حالة الخطر وعدم استدعآء احدٍ من الاطبآء فعرف وقتئذٍ ان في الامر خيانة وان ريمون اغتنم حلول وقت ولادتها فاتفق مع الطبيب وسقاها السم لينتقم منها ثم لم يطلب منهُ الابتعاد عن باريز الا ليكون في مأمن ممن يتتبع آثار جنايتهِ . فهاج بهِ الغضب ونادى يا للثار يا لثار الحبيبة اني سانتقم من ذلك القاتل الغشوم فاثبت جنايتهُ امام القضآء . ثم عاد وقال ولكن من اين لي ذلك وليس لديَّ شهود وخصمي قوي وهو رئيس محكمة الجنايات . وعندئذٍ تناهى بهِ اليأس فصار ينتحب ويقول الويل لي انا الشقي فقد كنت انا سبب الجناية على حياتها فيا لطول بلآئي وثقل جريمتي . ان احزاني لا تنتهي الا بالموت بل هو خير موردٍ لي عسى ان التقي بها في دار البقآء فاستغفرها عن ذنبي . ثم تناول مسدسهُ واطلقهُ على دماغهِ فوقع مختبطاً بدمآئهِ قتيلاً بدآئهِ